نقدّم هنا ملفّاً خاصّاً بالمفكّر الأمريكي التقدّمي نعوم تشومسكي. ويتضمّن الملفّ حواراً شاملاً أجراه «شارلز م. يونغ»، مع تشومسكي ونشرته مجلّة الرولنغ ستون في ٢٨ أيّار ١٩٩٢؛ وقد اخترنا للحوار عنواناً فرعيّاً هو «الديموقراطيّة على الطريقة الأمريكيّة». يتضمّن الملفّ كذلك محاضرة لتشومسكي بعنوان «مسؤوليّة المثقّفين»، ألقاها في جامعة هارفرد عام ١٩٦٦، وكانت دستوراً للحركة الطلّابيّة والأكاديميّة المناهضة لسياسة التدخّل الأمريكي في ڤيتنام.

ولئن كان نشر الحوار لا يحتاج إلى مبرّر - فهو من بين آخر الحوارات التي أجريت مع مفكّر الولايات المتحدة المعارض الأوّل - فإنّ نشر المحاضرة يستدعي تفسيراً. فالحال أنّ المحاضرة لا تنتقد دور الولايات المتحدة في جنوب شرقي آسيا في نهاية الستّينات فحسب، وإنّما تركّز على مسؤوليّة المثقّفين الأمريكيّين في «تشريع» تلك السياسة وتبريرها ومدّها بالحجج المقنّعة بالعلم والموضوعيّة. وتشومسكي يتّخذ حيال أولئك المثقّفين موقفاً جريئاً ورافضاً ويحمّلهم مسؤوليّةً كبرى عن المجازر التي ارتكبت في ڤيتنام. وسيجد القارئ في محاضرته هذه عرضاً مسؤولاً وموسّعاً عن الجوّ الذي سادَ أوساط المثقّفين الموالين لسياسة الولايات المتحدة، وهو جوٌّ لم يندثر في السنوات الأخيرة ولاسيّما إبّان حرب الأمريكان التدميريّة ضدّ العراق.

ولعلّه من المناسب القول كذلك إنّ كثيراً ممّا ذكره تشومسكي عن سياسة الولايات المتحدة في ڤيتنام، وتبريرات المثقّفين الموالين لتلك السياسة، يجد صداه في سياسة الولايات المتحدة تجاه العراق وتبريرات المثقّفين الموالين لتلك السياسة في هذا البلد العربيّ.

على أنّه من نافل القول إنّ الحديث عن مسؤوليّة المثقّف الأمريكي لا يُعفي المثقّف العربي من مسؤوليّته هو الآخر عن القمع والقهر وحروب «الضمّ» والإلحاق والطائفيّة والمذهبيّة والاستسلام (ونقيضها المغامرة). فلا يكفي أن نصفّق لتشومسكي ونأتي بمثل أفعال من ينتقصهم!

ونعوم تشومسكي (١٩٢٨ - ...) أستاذٌ في اللّغات الحديثة واللّسانيّات في معهد ماساشوستس للتكنولوجيا (M.I.T.). وهو، بعد «فرديناند دوسوسور»، أعظم من كتبَ في اللّسانيّات الحديثة. وقد طرح كتابان من كتبه نظرةً جذريّةً جديدةً لطبيعة اللّغة وتحليلها، وهذان الكتابان هما البنى التركيبيّة الكلاميّة (١٩٥٧) وخصائص نظرية التركيب الكلامي (١٩٦٥).

وقد عُرف عن تشومسكي كذلك معارضته الصارخة لحرب ڤيتنام، وإدانته لسياسة الولايات المتحدة في كوبا ونيكاراغوا وإيران ولبنان وفلسطين وهندوراس. واشتُهر كذلك بتبنّيه للأفكار الفوضويّة اليساريّة، فأغضب بذلك «اليمين» واليسار الماركسي على حدٍّ سواء. أمّا تأييده الدائم والحازم لنضال الشعب الفلسطيني - وهو التأييد الذي دفع ببعض الصهاينة إلى دمغه بلقب «اليهودي المعادي للساميّة» - فإنّه يكرّس حقيقةَ وجود مفكّرين - وإنْ قلّة - أمريكيّين يهود إلى جانب حقوقنا الوطنيّة رغم أنف بعض «القوميّين» المتعصّبين!

* * *

ولا بُدَّ، قبل الانتقال إلى الحوار والنّصّ المترجمَيْن، من الإشارة إلى كتاب تشومسكي الأخير الذي صدر منذ شهور قليلة وعنوانه العامُ الأوّل بعد الخمسمئة: الغزو مستمرّ. والحقّ أنّ هذا الكتاب يقدّم معلوماتٍ هائلةً عن دور الولايات المتحدة في العالم ابتداءً من اكتشاف كولومبوس حتّى يومنا هذا، بملحظ التشابه بين مجازر العصور الماضية وجرائم الإمبرياليّة المعاصرة، ومع التركيز على الدور الأمريكي الحكومي في مآسي هايتي وأمريكا اللاتينيّة والعراق وفلسطين. وإذا كان لنا أن نرسم، على نحوٍ عاجلٍ، سياسةَ الولايات المتحدة اليوم حيال قضيّتَيْن عربيّتَيْن معاصرتَيْن هامّتَيْن - هما: المسألة العراقيّة، والعمليّة السلميّة في الشرق الأوسط - كما رآها تشومسكي في كتابه الأخير، فإنّنا نرتئي

نعوم تشومسكي

لذلك الخطوطَ العامّة التي تعبرّ عنها المقاطعُ التالية:

أوّلاً - في المسألة العراقيّة:

عقب حرب الخليج الأخيرة، عاد جورج بوش لدعم صديقه وحليفه القديم صدّام حسين إذْ سَحَقَ هذا الأخير الشّيعةَ في الجنوب والأكرادَ في الشّمال. وقد فَسَّر الإيديولوجيُّون الغربيُّون هذا بالقول إنّه على الرّغم من أنّ تلك الأعمال الوحشيّة تخدش حساسيّاتنا المرهفةَ، فإنّ علينا أن نقبلها حُبّاً بـ «الاستقرار» في المنطقة (Stability).

وفي صفحة ٨٩ يفسرّ تشومسكي خلفيّة «الصداقة القديمة» و«الحِلْف القديم» السّابقَي الذِّكر بالكلمات التالية:

لقد تدخّلَ البيتُ الأبيضُ بشكلٍ مباشر وفي اجتماعٍ سرّي للغاية عُقِدَ في تشرين الأوّل (أوكتوبر) عام ١٩٨٩ - فيما كان حائط برلين يتصدّع - ليضمن حصولَ العراق على بليون دولار إضافي على شكلِ ضمانات قروض. وكان البيتُ الأبيض بعمله هذا يتجاوز اعتراضات دائرةِ الخزينةوالتجارة التي أكّدت أنّ العراق لا يمكن أن يُوثَقَ به على صعيد قدرته على ردِّ الديون. ولقد فسّرت وزارةُ الخارجية الأمريكيّة سببَ تدخّل البيت الأبيض بالقول: «إنّ العراق هامٌ جدّاً للمصالح الأمريكيّة في الشرق الأوسط: فهو ذو تأثيرٍ بالغٍ في العمليّة السلميّة، وهو مفتاحٌ لضمان الاستقرار في المنطقة وذلك بتوفيره فرصاً تجاريّة كبيرة للشركات الأمريكيّة». ولم تكن جرائم صدّام حسين ذاتَ بال، حتّى لحظة اقترافه جريمةَ العصيان [أي اجتياحه للكويت صيفَ ١٩٩٠]. ثُمَّ عادَ الغربُ إلى دعم العراق ضمنيّاً في مواجهة عدوٍّ أخطرَ، هو الحرّيّة والديموقراطيّة في العالم الثالث... (*) وهكذا فإنّ الدّرسَ واضحٌ من جديد: إنّ الأولويّة هي للأرباح وللقوّة؛ وإنّ الديموقراطيّة حين تتجاوز الشّكلَ تغدو [بالنسبة للإدارة الأمريكيّة] خطراً ينبغي التغلّب عليه؛ وإنّ حقوقَ الإنسان ذاتُ قيمةٍ أساسيّةٍ لأغراضِ الدعاية وحدها!

ثانياً - العمليّة السلميّة في الشرق الأوسط:

لقد وقفت الولاياتُ المتحدةُ وحدها - عمليّاً - ولسنين طويلة في وجه العمليّة السلميّة التي تُعطي للفلسطينيّين حقوقَهم الوطنيّة. وبين جناحَي الرّفْضِ الإسرائيلي («حزب العمل» و«الليكود») آثرتِ الولاياتُ المتحدةُ الجناحَ الأوّل. فوصمت اسحق شامير الليكوديَّ بـ «الإيديولوجي»، في حين وصمتْ رابين العمّاليَّ بـ «البراغماتي»... بل إنّ الإدارة الأمريكيّة سوف تعتبر الفلسطينيّين أنفُسَهم «براغماتيين» إنْ هم وافقوا على أن ترسم الولاياتُ المتحدة قواعدَ اللُّعبة: فلا يكون للفلسطينيّين حقوقٌ وطنيّة لأنّ هذا هو ما قرّرته الولاياتُ المتّحدة، وعليهم أن يقبلوا بالحكم الذّاتي؛ وهو حكمٌ شبَّهَهُ الصحفيُّ الإسرائيلي داني روبنستاين بحكم «أسرى الحرب أنفسَهم بأنفسهم داخل مخيَّم اعتقالهم»؛ حكمٌ ذاتيٌّ يكونون فيه أحراراً في جَمْعِ نفاياتهم في أماكنَ معيّنةٍ لم تحتلّها إسرائيل، شرطَ ألاّ تحملَ براميلُ النّفايات ألوانَ العلم الفلسطينيّ (على نحوِ ما أضاف واحدٌ من الإسرائيليّين الحرّويّين). وهكذا فإنّ مصطلح «العمليّة السّلْميّة»... يُعَبّر عن كُلِّ ما تقومُ به الولايات المتحدة من أفعال، بما في ذلك تعطيل العمليّة السلميّة ذاتها، كما هو الحال في مثالنا هذا كما في أمثلةٍ كثيرةٍ أخرى! (ص ٣٨).

***

وإذا كان لا بدّ من ملاحظةٍ ختاميّة على النصّينْ اللّذين قمتُ بترجمتهما، فإنّي ألفتُ نظر القارئ إلى أنّ تشومسكي إنسانٌ شديدُ التهكّم. وحين يقول «نحن» فإنّه غالباً ما يعني «الإدارة الأمريكيّة» أو «مثقّفيها التابعين» أو «الغباء الإعلامي المتحيّز في البلاد». ولذلك فقد ارتأيت أن أضع بعضَ عباراته بين مزدوجيْنْ، أو أن أُنهي بعضها الآخر بعلامات تعجّب غير موجودة في الأصل، تدليلاً على أنّ المقصود هو السخرية لا واقع الحال.

د. سماح ادريس

(*) لا يُناقِش تشومسكي ما إذا كان البديلُ المطروحُ حاليّاً للعراق وللعالم الثالث هو بالضرورة بديلٌ ديموقراطيٌّ وحرٌّ!